تصوير إبهار في دموع الأمير للكيلاني

سحر خالد المطيري

مجموعة «دموع الأمير» مجموعة قصصية من القطع الصغير تضم اثنتي عشرة قصة في مئة واثنتين وتسعين صفحة، وهي مجموعة قصص تاريخية إسلامية كما أشار مؤلفها نجيب الكيلاني بقوله: «...وقد تناولت هذه المجموعة أحداثاً تاريخية هامة... وشخصيات إسلامية لها مكانتها وفاعليتها»[١]، ويستطيع القارئ أن يدرك ذلك.

أما وصف قصص هذه المجموعة بأنها تاريخية فيعرف من خلالها أن القصة التاريخية هي التي تستمد أحداثها من التاريخ وتدور حول شخصيات من الماضي، ويطلب بها التأثير، ويبتغى منها الإقناع[٢]، بالإضافة إلى أن حوادث هذه القصص تبنى على «حوادث وقعت في التاريخ»[٣].

أما الإسلامية فلكونها تتناول أحداثا تاريخية إسلامية توجهت لها دون غيرها، ولذا، لا غرو أن يكون أحد المواضيع التي تدرس في هذه المجموعة موضوع الجهاد خاصة أن التاريخ الإسلامي معين لا ينضب إذا ما استغله الأدباء»...لا سيما وتاريخ الإسلام حافل بمواقف البطولة، والإخلاص، ونقاط التحول...للربط بين الماضي والحاضر دون مباشرة، أو خطابية، أو وعظ، أو تسطيح للأحداث والشخوص»[٤].

والكيلاني ممن تنبهوا لهذا المعين، ولم يتركه يضيع من بين يديه، فقد أدرك أهمية التاريخ بوصفه مادة ثرية للأدب إذ إنه يرى أن» «الواقع التاريخي لا يقل روعة وأهمية عن الواقع الحاضر فكلاهما مادة للقصاص يستطيع أن يضمنها ما يراه»[٥].

إذن التاريخ مصدر من أغنى مصادر القصة ولا يلجأ إليه عزوفا عن الواقع ولكن قد يكون الهدف منه محاولة للتبصر فيه،أو اعتباره أداة يستعين بها على تصوير مشكلة من مشكلات الإنسان في العصر الحالي و الاستفادة منه لبناء مستقبل أفضل، فالكاتب حينئذ يتناول التاريخ وعينه على الحاضر[٦].

◁◁ الجهاد في دموع الأمير للكيلاني:

الجهاد ركن من أركان الإسلام، بل أعظمها بعد الإيمان بالله تعالى، كيف لا وهو ذروة سنام الإسلام كما جاء في قول رسول الله ﷺ: «ذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله»[٧] وهو من أقسى الأشياء على النفس، فلا يستطيعه إلا صادق الإيمان ذو القوة والجلد والصبر

والإقدام، لأن فيه إلقاء للنفس في أحضان الموت.

والجهاد من بين المواضيع التي غطت مساحة واسعة في مجموعة «دموع الأمير» ولذا سنتناوله من جانبين:

تنوع صور الجهاد في دموع الأمير:

تناول الكاتب صورا مختلفة للجهاد، فلا غرو أن يظهر في هذه المجموعة الجهاد بشقيه: الجهاد الباطن المعنوي الذي ينقسم أربعة أقسام: جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا[٨].

والكيلاني في طرحه لهذا الموضوع أدرك أهميته ومدى حاجة المسلمين اليوم له وبالذات جهاد النفس نظرا لما طرأ عليهم من الغفلة عن هذا الأمر الذي أورثهم الذلة، فما تركت أمة الجهاد إلا ذلت، وهذه الصورة من صور الجهاد - جهاد النفس- تتجلى عندما تبدو الحل الوحيد لأصعب المشاكل في النفس البشرية، وفي المجتمع، المسببة عما يطرأ على هذه النفس من حوادث تستلزم الجهاد والمجاهدة، فمن ذلك جهاد أبي خيثمة لنفسه التي تصبح نقطة تحول في حياته، فهو ينظر للنعم التي يرفل بها فتزين نفسه له زينة الحياة الدنيا فينفر من الموت، ويتخلف عن جيش العسرة، ويقنع نفسه أن غيابه لن يؤثر، فيستيقظ الإيمان في قلبه ويصحو من غفلته، ويلحق بجيش العسرة، ويحقق نصرين، نصرا لدينه ونصرا لنفسه.

فأبو خيثمة يمثل قدرة الإنسان على الانتصار على ضعفه أمام نفسه، كما يصور أصالة الجوانب الخيرة المشرقة في الإنسان من خلال تعرضه لمواقف الضعف في حياته، وكيف يجاهد نفسه للانتصار عليها في أشد لحظات الضعف التي تعتريها إلا أنه يبقى ممن قال الله فيهم: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ (العاديات).

ومن صور الجهاد ما نجده ماثلا في شخص سعد بن أبي وقاص في «صانع الرجال» فقد جاهد نفسه في الثبات على دينه رغم حداثة سنه وإسلامه، ولم يخضع لرغبة أمه بالارتداد عن دينه.

أما جهاد الهوى وهو من أصعب أنواع الجهاد لأن الإنسان سيجاهد نفسه في أشياء تميل إليها ولا تستغني عنها كحب ملذات الحياة بمختلف أنواعها، وفي التزام النفس التخلي عن شيء منها في سبيل الطاعة لابد من بذل جهد مضاعف لتحقيق هذا الأمر لأنه من الأمور التي فطرت عليها النفس وألفتها، فأبو خيثمة كغيره من البشر يحب متاع الدنيا ، فينظر للنعم المحيطة به فيقبل عليها حتى كادت أن تثنيه عن الجهاد، فيسجل قمة الانتصار على مراد نفسه وهواها فيصرخ في زوجتيه:«أبعدا عني هذا الطعام، واحملا عني ذلك الماء العذب البارد فما بي من ظمأ ولا جوع إلا إلى الله... أبو خيثمة في الراحة والنعيم ورسول الله في

نجيب الكيلاني

الشمس والريح... فوالله لا أدخل عريشة إحداكما إلا بعد أن ألحق بمحمد ﷺ»[٩] فهو أكره نفسه على ترك متع الدنيا من أجل المتعة العظمى التي لا ينال شرفها إلا المؤمن الحق.

ولدى أبي خيثمة أيضا تظهر صورة جهاد الشيطان فهو العدو الأول والأخير للإنسان منذ أن خلق الله آدم، وأخذ الشيطان عهدا على نفسه بإضلال بني آدم: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ... ﴿١٧﴾ (الأعراف)، فالشيطان هو الذي وسوس لأبي خيثمة وزين له الحياة ونفره من القتال «فما لمحمد وللرومان؟ إن الوصول إليهم يحتاج آمادا طويلة وفيافي قاحلة، ومشاقا تنوء بحملها الجمال، وإن الطريق إليهم كله أهوال... ثم هناك كثيرون غيري يستطيعون أن يديروا رحى الحرب...»[١٠].

أما جهاد الدنيا فيتجلى في شخص العز بن عبد السلام «سلطان العلماء» فهو يقف قويا أمام المغريات الدنيوية التي يقدمها له السلطان، فيحاول إغراءه عارضا عليه العودة إلى جميع مناصبه

التي جرد منها، ليس هذا فحسب، بل زيادة عليها مقابل انكساره للسلطان والعدول عما هو ماض فيه، لكنه يصبر ويجاهد نفسه في ذلك في سبيل الدين والحق، ولا يسمح له بقبول مغريات السلطان لأنها ستجد عند الله مالا يخطر على قلب بشر.

وتتجلى هذه الصورة أيضا عند أبي ذر رضي الله عنه في «رجل في المنفى» هذا الصحابي الزاهد في الدنيا ومغرياتها، فمذ عصر رسول الله ﷺ وهو لم يزد أي شيء على طعامه المكون من صاع من شعير وها هو يقف أمام أصناف الطعام التي يقدمها معاوية له، ويقدم أجمل صور الزهد بالدنيا وجهاد النفس في إعراضها عما تحب إذا ما لوحت لها الدنيا بملذاتها.

وتجدر الإشارة قبل الانتقال إلى الشق الثاني للجهاد إلى أن قصة «أبو خيثمة» اشتملت على صور الجهاد الباطني الأربعة الآنفة الذكر: جهاد النفس والهوى والشيطان والدنيا، فأبو خيثمة وقف أمام الإغراءات وقفة قوية ولم يبع نفسه للدنيا، بل اشترى الحياة الآخرة الباقية بالحياة الدنيا الفانية.

أما الشق الثاني للجهاد فيتمثل في: الجهاد الظاهري الحسي الذي ينقسم أربعة أقسام: جهاد بالنفس، وبالمال، وباللسان، وبالعلم، وذكرها رسول الله ﷺ بقوله:« جاهدوا المشركين بألسنتكم وأنفسكم وأموالكم وأيديكم»[11].

قد يسأل سائل: لم قدم الجهاد الباطني الذي يقتصر أثره في الغالب على الفرد ، على الجهاد الظاهري ذي الدائرة الواسعة، فهو يشمل الفرد ومن حوله؟!

الإجابة على هذا السؤال تكمن في معرفة كل نوع من أنواع الجهاد، فالجهاد الظاهري يتطلب مزيدا من القوة والصبر زيادة على ما يتطلبه الجهاد الباطني هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى الفرد لن يقدم على الجهاد الظاهري ما دام لم يحقق الجهاد الباطني، فمن ذا الذي سيجاهد بنفسه ويقدمها للموت ما دام أنه لا يستطيع جهاد نفسه ويسيطر عليها، ولابن القيم كلام في هذا الشأن فيقول: « ... ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنا، فمن يصبر عليه يصبر على عدوه، ومن لا يصبر عليه يصبر عدوه عليه»[12].

تميز الجهاد بالنفس

والجهاد بالنفس بوصفه جهادا ظاهرا تبدو صورته واضحة جلية في مجموعة دموع الأمير فأغلب قصص هذه المجموعة تحتوي على هذه الصورة من صور الجهاد فمن ذلك قصة «أبو خيثمة» و«واحسيناه» «وعلى أبواب دمشق» وغيرها، وجميع أبطال هذه القصص جاهدوا بأنفسهم واشتركوا في القتال مباشرة وقابلوا الأعداء وجها لوجه فمنهم من ظفر بالنصر، مثل: أبي خيثمة، وابن تيمية... ومنهم من ظفر بالشهادة، مثل: الحسين بن علي رضي الله عنهم جميعا.

أما الجهاد بالمال فهو ما ظهر في «القلب الكبير» فابن المبارك يتصدق بمال القافلة على تلك الفتاة الفقيرة ولا يبقي منه سوى ما يعينهم على العودة لديارهم، ويعدل عن الحج الذي خرج من أجله، وهذا ضرب من أنواع الجهاد بالمال، لأنه يسهم في تخليص الناس والمجتمع من مشكلة تحتاج إلى بذل الجهود الحسية والمعنوية للقضاء عليها.

والجهاد باللسان يعد ضرباً من أضراب الجهاد فرسول الله ﷺ كان يحث حسان بن ثابت . رضي الله عنه، والصحابة على جهاد المشركين بألسنتهم حتى إنه أمرهم بذلك، والأمر يقتضي الوجوب بقوله:«جاهدوا المشركين بألسنتكم»[13].

وهذا ضرب آخر من الجهاد ظهر في مجموعة دموع الأمير في قصة «سلطان العلماء» و«العرش المحطم» و«الإمام الأعظم» و«على أبواب دمشق»... والجهاد باللسان في أغلب القصص التي ذكرت كان يأتي برفقة الجهاد بالعلم وهذا ما ينبغي أن يفعله أصحاب العلم.

فأبطال هذه القصص من العلماء تنبهوا للكنز بين أيديهم فاستخدموا علمهم في الجهاد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما هذا إلا ضرب من الجهاد باللسان والعلم الذي يحتاج إلى صبر، وقوة، ومجاهدة لتحقيقه، والوقوف أمامه وفي وجه الآخرين، وتحمل الأذى الذي يصدر منهم.

فالعز بن عبد السلام العالم العامل في « سلطان العلماء» يستخدم علمه ويصدر الفتاوى، ويلقي الخطب في مواجهة السلطان، ليطلق كلمة الحق دون خوف أو وجل، وأبو حنيفة أيضا في « الإمام الأعظم» يتنبه لواجب العالم تجاه من حوله فيستخدم علمه في إنكار المنكر وبيان الحق.

مما تقدم يلحظ أن الكيلاني عرض هذا الموضوع في قصص عديدة، وهو في عرضه لهذا الموضوع توخى المجيء بصور مختلفة من خلال تنوع القصص التي أتى بها عارضة للموضوع، فهو يدرك أنه موضوع يمس كيان الأمة، وخاصة أنه أدرك مدى حاجة الأمة للجهاد، فتناول هذا الجانب من جوانب تاريخنا المجيد ليذكر القراء والشباب بالكنز الذي أضاعوه مع حاجة الأمة الماسة في هذه الأيام، إذ لا سبيل لإعادة ما ضاع منها إلا بالعودة إلى توشح السيوف، وامتطاء الخيول.

تصوير المواقف الجهادية المؤثرة:

تميز الكيلاني في تصوير المواقف الجهادية لبعض الشخصيات، ومن ذلك موقف أبي معزى في «أبو معزى»، فأبو معزى يبدي كل ما يستطيع إبداءه من قوة وجلد أمام كل أنواع التعذيب في سبيل الأمر الذي يثير حيرة المحققين الذين لم يستطيعوا إنطاقه لا بالتهديد ولا بالتعذيب، فها هو يقابل تعذيبهم بروح قوية وكأنه لم يتألم فيدير لهم ظهره ليضربوه ولا يفرحهم بصرخة ألم واحدة... وكأنما قد مد بقوة أخذت تنزل سياطهم عليه كأنها مساح.

ثم يفاجئ اللجنة بتقريره الكلام ويبدأ بالإجابة على أسئلتهم، ومنذ لحظة أن قرر الكلام أدخلهم في دوامة الحيرة حتى إن المحكمة أخذت وقتا قبل أن تصدر حكما في حقه لا يكون فيه خسارة لهم فقررت سجنه.

وفي «سلطان العلماء» يظهر العز بن عبد السلام وقد ضاق ذرعا بما يجري حوله فلم يستطع السكوت، فيجمع أهله ليبلغهم بقراره قائلا: «هذه الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة... كلمة الحق فريضة، فإذا كانت كذلك بالنسبة لعامة الناس فما بالكم بالعلماء؟! ومما لأة أعداء الدين جرم وأي جرم، وسلطان دمشق قد خان الأمانة... وحقيقة الأمانة تأبى السكوت على هذا الضيم، ولذا قررت أن أخوض المعركة ضد الصالح إسماعيل وضد الفرنجة، فغمغم ابنه: إنك يا أبتي أضعف من أن تتحدى السلطان أو تشهر في وجه أنصاره سيفا»[١٤].

ويرد الشيخ على ابنه بحدة: «غفر الله لك يا بني... إن كلمة الحق وحدها جيش كامل العدة والعتاد وقررت أن أقولها، أتحسب أن أباك يحرص على

حياته ومنصبه»[١٥].

فالشيخ لا يأبه بالدنيا ولا بمناصبه ولا بالموت وما سيلاقيه، ولا يشعر بالخوف أو الضعف، لأنه يتسلح بجيش الحق الذي لا يقهر، فيمضي بما هو مقدم عليه غير هياب ليقدم صورة من صور المجاهدين بالعلم والعمل.

وفي قصة «واحسيناه» يقف الكاتب على نموذج من نماذج المجاهدين في شخص الحسين بن علي الذي يشتعل همة ونشاطا وإقداما حتى لنكاد نتحسس مشاعر هذا البطل وما تفيض به نفسه من حب للجهاد وإن أفضى به إلى الموت المحقق، ويبدو في ساحة المعركة مدى إقدامه وشجاعته التي تأبى عليه أن يتراجع عن موقفه.

والكيلاني في تصوير موقف المجاهد إزاء ما يعتريه من نوائب الدهر في أشد المواقف حتى إنه ليدخل في صراع بين حبه للموت وشعوره بمرارة الموت ووقع أصدائه على قلبه في تلقيه أنباء موت أتباعه وأقربائه إلا أنه يمضي في سبيل الله مجاهدا غير هياب للموت وليكن ما يكون، فينال الشهادة المرجوة التي أراد.

ونخلص مما تقدم إلى أن الكيلاني اهتم بموضوع الجهاد، ووهبه كل عناية في عرضه وتصوير مواقف المجاهدين تصويراً يتسم بالإسلامية الواضحة، ليتحقق الغرض المنشود من فتح لأعين الناس على الكنز الذي أضاعوه اليوم، ولتحقق العظة والعبرة بضرب الأمثلة من المجاهدين الأفذاذ ليتخذوا منهم نموذجا وقدوة.

وتجدر الإشارة إلى أن الكيلاني تميز في اختياره مواقف الشخصيات المجاهدة التي تتفق وأحوال المسلمين اليوم، الذين يواجهون أخطر المواقف، ومن هذا المنطق تكون هذه الشخصيات بمواقفها مرتبطة بالقارئ غير مفصولة عنه فيتولد لديه إحساس بمدى قربها منه، وهذا إحساس نابع من قيمتها، لأنها مرت بتجربة وموقف سجله التاريخ وهذا ما يمر به المسلمون اليوم ■

الهوامش:

(١) د. نجيب الكيلاني. دموع الأمير. مؤسسة الرسالة. بيروت، ١٤٢٢هـ، ص٨-٩.

(٢) راجع د. الطاهر بن أحمد مكي، القصة القصيرة - دراسات ومختارات، ط١. دار المعارف. مصر. ١٩٧٧م ص٢١.

(٣) محمود تيمور. دراسات في القصة والمسرح. الطبعة النموذجية. مصر د.ت، ص٣٤.

(٤) د. سعد أبو الرضا. الأدب الإسلامي. ط١. عالم المعرفة، جدة، ١٤٠٣هـ، ص١١٢-١١٣.

(٥) دموع الأمير. ص٨.

(٦) راجع الكيلاني. مدخل إلى الأدب الإسلامي، ط٢. دار ابن حزم. بيروت، ١٩٨٤م، ص١-٣.

(٧) أحمد بن خليل الشيباني. المسند. مؤسسة قرطبة، د. ت. مصر. ٢٣٥/٥. حديث رقم: ٢٢١٠٤.

(٨) انظر ابن القيم. الفوائد. ت. د. ماهر عبدالرزاق وكمال الجمل. ط١. دار اليقين. مصر ١٤١٧هـ. ص٨٧.

(٩) دموع الأمير. ص١٣٢-١٣٣.

(١٠) دموع الأمير. ص١٢٧.

(١١) المسند ١٥٣/٣، حديث رقم ١٢٥٧٧.

(١٢) الفوائد. ص٨٧.

(١٣) سبق تخريجه.

(١٤) دموع الأمير. ص١٣٩ وما بعدها.

(١٥) المصدر السابق. ص١٤٠.